بين الثقافة العربية والثقافة الغربية

بقلم الدكتور

نظام محمود بركات (*)

أولا : مفهوم الثقافة :

يجدر بنا قبل الحديث عن التبادل الثقافى أن نشير بإيجاز إلى مفهوم الثقافة بشكل عام ، فهى تعنى ذلك الكل المعقد الذى يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وأية قدرات يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع [١] وهى بالتالى تتكون من ثلاث دوائر مترابطة ومتماسكة أولها القيم والمبادئ والمعتقدات ، ثانيها أنماط سلوكية ، وثالثها جزاءات جماعية للممارسة والتعامل [٢] .

وتأخذ الثقافة مجموعة من الأبعاد منها : بعد إدراكى عن الواقع الاجتماعى الذى نعيش ، فيه من نحن ؟ ما العلاقة مع الآخرين ، وبعد معيارى يقوم على تحديد هرمى للقيم والتمييز بين الخير والشر وبعد إرادى يتمحور حول الخطوات الواجب إتباعها [٣] .

ومن خلال هذا التعريف تظهر لنا الثقافة كحلقة وصل بين الدين والقيم الروحية من جهة وبين الحضارة التى تمثل ناتج الثقافة فى الزمان والمكان من جهة أخرى ، ويشبه أحد الكتاب وضع الثقافة بعلاقتها بغيرها بالشجرة حيث تكون الجذور هى القيم الدينية والروحية وتمثل الثقافة الساق والأغصان وتمثل الحضارة الثمار والنتاج المادى [٤] .

وفى ظل هذا المفهوم للثقافة تعرف بأنها الإطار الذى أنتجه الإنسان بناء على فهمه واستيعابه لعقيدته وتراثه الدينى وتفاعلاته المتعددة داخل بنيته الاجتماعية والطبيعية فى كل مرحلة تاريخية سواء على المستوى الفردى أو الجماعى .

ويشمل هذا الإطار أبعاد وعناصر روحية ومعرفية وأدوات فنية وموجهات قيم وتقاليد ومعايير للسلوك وطرائق للحياة لضمان البقاء للفرد والجماعة [٥] .

(*) رئيس قسم العلوم السياسية - جامعة اليرموك .

مما سبق يمكن القول بأن الثقافة هى نتاج مجموعة من العوامل المادية والمعنوية وهى عملية متغيرة لا تعرف الثبات ، كما أن القول بوجود ثقافة معينة فى المجتمع لا يعنى تماثل عناصرها لسائر أفراد المجتمع وأن هناك باستمرار هوامش للاختلاف الثقافى تفرضه عناصر معينة كالأصل والديانة والمستوى الاقتصادى والاجتماعى وغيرها . وبالرغم من ذلك تبقى لكل أمة ثقافة خاصة بها ، لها مذاق معين يعبر عنها وخصائص عامة تميزها عن غيرها من الثقافات وتشكل المركب العقلى والنفسى للجماعة .

ثانيا : التبادل الثقافى :

يقصد بالتبادل الثقافى ذلك النشاط الذى يعبر عن تفاعل الحضارات بالثقافات بما فيها من تأثر طبيعى وضرورى بين الثقافات البشرية ، ويقوم التبادل الثقافى بين الأمم على أساس الحوار المبنى على الاعتراف بأن لدى الآخرين ما نتعلمه منهم وأن لدينا ما نعلمه للآخرين ، ويركز أنصار التبادل الثقافى على أهمية ومساهمة كافة الحضارات والثقافات بغض النظر عن مدى تطورها أو تخلفها – فى الثقافة الإنسانية .

إن عملية التبادل الثقافى لدى المؤمنين بها تنبع من الإيمان بأهمية التلاقى بين الثقافات وأن هناك منافع متبادلة للجميع انطلاقاً من مبدأ عالمية الثقافة وأن انتقال الأفكار والقيم والمكتسبات الإنسانية لا يمكن وقفه من خلال الحواجز السياسية والحدود الجغرافية [٦] .

وإن هذا الانتقال يسمح بتعميم التطور العلمى والفكرى وإخصاب الوعى البشرى لدى جميع الشعوب لدفع الحضارة البشرية نحو التقدم .

إن العالم أضحى قرية صغيرة كما يوصف اليوم من خلال القدرة على انتشار الثقافات وتبادل المعرفة ، ولكن فى الوقت نفسه يجب التسليم بأن هذه القرية هى قرية متعددة الحضارات تساهم فيها كل الثقافات الحية بدورها [٧] ، فالمجتمعات الغربية رغم تقدمها عجزت عن حل مشاكل الإنسان حتى داخلها ، وهى ستبقى فقيرة فى المجال الثقافى وبحاجة لدور الثقافات الأخرى مثل الثقافات الشرقية التى يمكن أن تزودها بالدين والروحانية مثل الحضارة العربية والإسلامية والهندية وحتى بالعلم من الحضارة اليابانية ، وفى المقابل هناك اتجاهات كثيرة تتحفظ على عملية التبادل الثقافى وتشترط

مجموعة من الشروط والظروف الملائمة لعملية التبادل الثقافى ومنها أن عملية التبدل الثقافى يجب أن تتم فى ظل حالة من تكافؤ الأطراف التى يتم التبادل بينها حتى تكون عملية التأثير متبادلة ، وفى الحالة العربية يحبذ كثير من المفكرين أن يتم تبادل التأثيرات الثقافية مع الثقافات غير الاستعمارية مثل الثقافة الهندية والصينية واليابانية .

إن عملية التفاعل الثقافى مرهونة أساساً بفهم الذات الثقافية كمقدم لفهم الآخرين، فهى عملية تتعلق بالمستقبل والتجدد والقدرة على الإفادة من الآخرين من خلال الدراسة المتأنية لنقاط القوة والضعف فى الأطراف التى يتم بينهم التفاعل . وإن العملية يجب أن تخضع للانتقا ئية من الحضارات الأخرى مع الاحتفاظ بخصوصية الثقافة المحلية ، وأن الشرط الأكثر تكراراً واضطراراً فى التجارب الناجحة الخاصة بالتبادل الثقافى ناتجة عن التقارب والتكامل بين الخصوصية الحضارية والعقل ، وبين السلوك الرشيد والانتماء الحضارى ، أى أنها عملية توفيق بين المشاعر والعواطف القومية من ناحية والإنسانية من ناحية أخرى [٨] .

وبالتالى فإن كثيراً ممن تكلموا عن التبادل الثقافى ينطلق من مبدأ عدم تكافؤ عملية التبادل الثقافى وإن عملية الاتصال الثقافى بين المجتمعات الغربية المتقدمة والمجتمعات الأقل تطوراً كالمجتمع العربى ينبع من تصور محدد يفترض أن على المجتمعات المختلفة الاحتكاك والتواصل والأخذ من الثقافة الأكثر تطورا ، وذلك لتحقيق التقدم البشرى اتباعاً لسنن التطور التاريخى حيث لم يوجد هناك مجتمع يقوم بنفسه بإتقان كل خطوة من خطوات الاختراعات والتقدم ، وبما أن الثقافة الغربية هى الآن على قمة التطور البشرى فما على الثقافات الأخرى إلا الأخذ والتفاعل معها لتلحق بالركب الحضارى وبالتالى فليس هناك داع لتكافؤ الحضارات .

وينطلق آخرون فى نفس الاتجاه من خلال التسليم بأن نجاح الحضارة الغربية إنما يرجع أساساً إلى صحة أيديولوجيتها وثقافتها وأن على الآخرين الأخذ بهذه الثقافة لضمان نجاحهم ، ولذلك آمن كثير من المفكرين الغربيين بأهمية تصدير ونشر الثقافة إلى مختلف الأطراف فى العالم ، ولكن فى رأينا بأن عملية تصدير الثقافة تختلف عن عملية استيعابها من الطرف الآخر لا تعبر عن مدى صحتها . وقد حذر توثروب فى بداية

الخمسينات من مغبة الاتجاه الأمريكى نحو فرض الثقافة الأمريكية على المجتمعات غير الغربية ، وفى نفس الاتجاه ظهرت دعوات فى الثقافة الغربية نحو التعاون والتحالف مع الثقافات الحرة مثل الهندوسية والبوذية والإسلام فى الصراع ضد الإلحاد الذى كان يمثله المعسكر الشيوعى [٩] .

وفيما يلى نقدم بعض أنماط التبادل اللامتكافئ للثقافة العربية والأوربية .

ثالثا : التبادل اللامتكافئ بين الثقافة العربية والغربية :

إن عملية نشر الثقافة والتبادل الثقافى غالباً ما يتم بين مجتمعات وثقافات غير متكافئة وهى تتم عند الاتصال بين مجتمع وثقافة متقدمة ومجتمع وثقافة متخلفة حيث تسير الثقافة باتجاه واحد من أعلى إلى أسفل [١٠] .

وتعج الأدبيات العربية بمجموعة من الوصوفات التى تشخص العلاقة غير المتكافئة بين الثقافة العربية و الغربية واستخدمت مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التى تعبر عن أنماط هذه العلاقة منها : [١١] .

١ - الغزو الثقافى :

يتمثل هذا المفهوم فى الدور الذى قامت به القوى الاستعمارية التقليدية مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فى تحطيم الثقافة العربية واللغة القومية ومحاولة إلغاء الثقافة العربية ومقاومتها والقضاء على مؤسساتها من أجل إكمال السيطرة العسكرية على المنطقة العربية وضمان استمرار الوجود الاستعمارى فيها .

ويرى الدكتور عبد الباسط عبد المعطى بأن هذا التعبير جاء قاصراً أو مختزلاً لأنه عين المبتدأ وهو الغزو وترك الخبر ضمنيا مع إشارة رمزية لفاعل دون اهتمام بالفعل والمفعول به .

ويرى البعض بأن هذا التعبير يراد به تبرئة الذات وتحميل الآخرين مسئولية الهجوم دون إعطاء أهمية للعوامل الداخلية التى مهدت لعملية الغزو وسهلت نجاحه .

ويعبر هذا المفهوم عن بداية الاتصال التاريخى بين الحضارة والحضارة العربية فى العصور الحديثة والتى تمثلت فى السيطرة الاستعمارية الغربية على الوطن العربى من خلال الغزو والاحتلال العسكرى .

ويشير مفهوم الغزو إلى الطابع الحركى الذى يظهر استمرار الآليات التى تحقق السيطرة وامتداد فاعليتها وكذلك قوة التغلغل الثقافى وكثافته مع فقدان المجتمع المغزو. والسيطرة عليه نتيجة ما أصاب هذا المجتمع من تدمير لحضارته واستلاب لثقافته بحيث وقف جامداً ومستسلماً للتغيرات التى تحدث بداخله .

٢ - مفهوم التبعية :

تعرف التبعية الثقافية بأنها ذلك النمط من العلاقة التى تجعل بعض الثقافات تعتمد اعتماد بنيويا فى إنتاج ثقافتها على ثقافات أخرى تمارس تجاهلها سيطرة ما سواء بسبب تفوق هذه الثقافات أو بسبب انعدام الثقة بالنفس لدى الثقافة الضعيفة وعدم قدرتها على إنتاج القيم والمعانى والأفكار والأنماط السلوكية التى تحتاجها مجتمعاتها ، وتتمثل هذه التبعية فى مظاهر إحلال قيم وعادات وأنماط سلوكية محل القيم السائدة فى هذه المجتمعات [١٢] ويشير هذا المفهوم إلى حالة فاعلها مجهول وتركز على المفعول به حيث تظهر التبعية حالة المجتمع التابع كمجتمع مهشم ومتناقض يسوده التفكك وعدم الأصالة مما يجعله رافض ومتشكك بتراثه الفكرى وأكثر تكيفاً وارتباطا بثقافة المتبوع وهو الجهة الخارجية ويعبر هذا المفهوم عن طبيعة العلاقة المعاصرة بين المجتمعات الغربية المتقدمة والمجتمعات العربية المتخلفة وما رافقها من ارتباط وتقليد وإعجاب بالحضارة الغربية وفقدان لشروط التجدد الذاتى وتفكك داخل الأنماط الثقافية التابعة والتى بموجبها استطاعت القوى الرأسمالية العالمية الهيمنة على أبنية المجتمع العربى الاقتصادى والاجتماعى وبالتالى تزامنت التبعية الثقافية مع التبعية الاقتصادية والسياسية واعتبرت وسيلة من وسائلها .

٣ - الإمبريالية الثقافية :

تعرف الإمبريالية بشكل عام بأنها علاقة اقتصادية سياسية عسكرية معقدة تخضع من خلالها أقطار مختلفة لأقطار متقدمة وهى بالتالى تعنى ممارسة نفوذ دول كبرى على دول صغرى [١٣] ويهتم أنصار هذا المفهوم فى المقام الأول بالثقافة المسيطرة وأهمية العوامل الخارجية وهى الفاعل وتكون العلاقة عبارة عن هيمنة تمارسها ثقافة متقدمة ومسيطرة على ثقافة متخلفة وتابعة بحيث تحتل الثقافة مواقع أساسية فى الثقافة المتخلفة من خلال فرض قيمها وأنماطها السلوكية على الآخرين .

ويعد أنصار هذا المفهوم عملية تصدير العادات والقيم الأمريكية الاستهلاكية إلى الدول الأوربية والعام الثالث من خلال استخدام وسائل الترغيب والإغراء وتقديم هذه الأنماط السلوكية على هذه المجتمعات وغيرها وأن انتشار الثقافة الأمريكية هو تعبير عن تطور ميزان القوى السياسى والاقتصادى لصالحها ، وأن انتشار الثقافة لا يمكن اعتباره مقياس لمدى صلاحية هذه القيم وتقدمها الأخلاقى والمعنوى وإنما هو نتيجة للقدرة الأمريكية الاقتصادية والسياسية التى تسمح لها بتسويق ثقافتها من خلال وسائل الإعلام .

٤ - التسميم الثقافى :

استخدم هذا المفهوم بصورة واضحة فى وصف العلاقة بين الثقافة الصهيونية والعربية ويشير د. حامد ربيع إلى أن هذه العلاقة تقوم على التصادم والإلغاء ومحاولة الثقافة الصهيونية هدم نظام القيم والرموز فى الحضارة العربية وتشويهها دون تقديم بديل مقبول وأنها تحاول استغلال الوضع السيئ للأمة والثقافة العربية لتجعله يمتد للماضى ، من خلال نفى الدور العربى فى الثقافة البشرية ، ومحاولة محو الشخصية الثقافية للأمة العربية عن طريق التشكيك بقيمة الثقافة العربية وإبراز وجهها السلبى ومحاولة إحياء الثقافات الفرعية وتوظيفها لكسر وجود الثقافة العربية [١٤] .

رابعا :العلاقة بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية :

دون الدخول فى تفاصيل العلاقة التاريخية بين الحضارة والثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية يمكن ملاحظة أن هذه العلاقة مرت بعدة مراحل من التبادل الثقافى والاحتكاك بدءا من الحضارة اليونانية التى استلهمتها الثقافة الإسلامية بعد مراجعة وتمحيص ونقلتها إلى الغرب من خلال الحضارة العربية فى الأندلس ، كما قامت الثقافة الإسلامية فى العصور الوسطى من خلال وسيطتها بالتوفيق بين العلم وبين الدين والفلسفة [١٥] ، ومع أن فترة العصور الوسطى قد اتصفت بنوع من الصراع بين الثقافتين العربية الإسلامية والغربية حين اعتقد آباء الكنيسة الكاثوليكية بضرورة إعادة المجتمع الإسلامى إلى المسيحية المعبرة عن النقاء الدينى وظل الفكر الغربى ينظر للمنطقة العربية كمصدر تهديد ومبعث خوف ورهبة إلا أن الوضع كان مختلفاً لدى الحضارة العربية

الإسلامية فلم تجر محاولات جادة لغزو أوروبا ونشر الديانة الإسلامية باستثناء الوجود العربى فى الأندلس واتجهت معظم الفتوحات الإسلامية نحو آسيا، وقد يكون أحد المبررات لذلك أن الدولة الإسلامية كانت تنظر إلى أوروبا باعتبارها دول يسودها أهل الكتاب وأن ثقافتها دينية يجب أن ينظر لها بنوع من الاحترام [١٦].

لقد ساعدت الثقافة العربية فى دفع الحضارة الغربية فى بداية عهد التنوير نحو التوازن والعقلانية حين كانت الحضارة الغربية تسعى نحو إحلال السلطة والسيادة الدينية محل العقلانية ، وساعدت الحضارة الإسلامية فى إدخال التفكير العلمى والسببية فى الفكر الغربى [١٧] بعد ذلك بدأ الاحتكاك المباشر بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية من خلال الأندلس وصقلية وبيزنطة والحروب الصليبية . وكذلك عن طريق الترجمة للنصوص الإسلامية واليونانية من اللغة العربية إلى اللاتينية وعن طريق الدراسة والتدريس فى الجامعات الأوربية والعربية . ثم تبعتها مرحلة الاهتمام بالثقافة الإسلامية من قبل الغرب فى مرحلة الصراع العسكرى الذى قاده العثمانيون على أطراف أوروبا الشرقية وما تلاها من ظهور مرحلة الإستشراق كتمهيد لمرحلة الغزو الاستعمارى للمنطقة العربية ، وأخيراً الاحتكاك الناتج عن الوجود الاستعمارى فى المنطقة العربية خاصة حملة نابليون على مصر والحملات التبشيرية فى المنطقة العربية ومحاولة استقطاب الأقليات غير المسلمة فى المجتمع العربى الإسلامى وقد نتج عن هذه المرحلة صعود الاتجاهات العربية للتصدى للوجود الاستعمارى فى المنطقة العربية وبروز حركة النهضة العربية ومحاولات مقاومة الهيمنة الغربية على الثقافة العربية الإسلامية بشتى صورها سواء من خلال الغزو العسكرى أو الهيمنة الاقتصادية والسياسية .

وقد استخدمت الثقافة الغربية فى هذه المرحلة مجموعة من الآليات التى وظفتها لضمان استمرارية هيمنة الثقافة الغربية على الثقافة العربية نذكر منها [١٨] .

١ – احتكار التقنية Know How والتشغيل Do How والسعى لزرع أنماط مفروضة على الوطن العربى وهى ليست مسألة تكنولوجيا وإنما ترتبط أيضاً بفلسفة معينة وقيم معروفة ومصالح .

٢ – توجيه الفكر والعلم التنموى لتأكيد تفوق الحضارة الغربية وأنها النموذج الذى يحتذى مع التشكيك بالذات وجعله سبب التخلف العربى مع القيام بدراسات نظرية لإعطاء الشرعية اللازمة للثقافة الرأسمالية والغربية .

٣ - إنشاء مجموعة من المؤسسات التى تؤثر مباشرة على الثقافة العربية مثل الجامعات التبشيرية ومراكز اللغات والترجمة ومؤسسات خيرية أخرى .

٤ - استخدام وسائل الإعلام لإعادة تشكيل الوعى القومى العربى .

٥ - إيجاد فئات وشرائح فى المجتمع العربى تعمل كوكيل للثقافة الغربية بعد ربط مصالحها بالغرب .

٦ - تقديم مساعدات مالية لمشاريع الأبحاث التى تخدم انتشار الثقافة الغربية وتقديم خبراء ومختصين فى ذلك ، وعقد الندوات واللقاءات التى تدعم التوجهات الثقافية الغربية .

٧ - تحديد الرموز التى على الدولة التابعة أن ترعاها ويشمل ذلك إعداد جميع الدلالات اللفظية والموسيقية والثيابية التى يجب التحلى بها .

لقد تباينت ردود الأفعال التى واكبت الاحتكاك الثقافى بين العرب والغرب فى العصر الحديث ومحاولات التعامل مع الآليات الغربية للهيمنة على الثقافة العربية وتوزعت أنماط الاستجابة لهذا التحدى بين نماذج عديدة نذكر منها :

١ - الانغلاق والانعزال :

تقدم التجارب التاريخية لعلاقة الثقافات العالمية نماذج عديدة فى هذا المجال حيث رفضت معظم الحضارات القديمة فكرة العلاقات المتبادلة ، فالحضارة الفرعونية أغلقت على نفسها ورفضت أى تعامل خارجى وكذلك الحضارة الفارسية والصينية والهندوسية والرومانية واليهودية ما عدا الحضارة اليونانية والإسلامية كانت الحضارة القديمة تبالغ فى الثقة بالذات وتأبى التوفيق وتميل للتطرف . يقول شيشرون «نحن لا نتعلم من أحد» (١٩) أما فى الوقت الحاضر فهناك اتجاه واضح لدى مجموعة من المفكرين العرب يدعو إلى إغلاق الأبواب أمام الثقافات الواردة وتطالب بالتحصن بالماضى ويشبهها الدكتور : زكى نجيب محمود - بالجماعة التى وجدت الصيد نافرا من القفص فاستغنى عن الصيد واحتفظ بالقفص يضع فيه كائناته المألو فة الموجودة بين يديه (٢٠) وهم الجماعة التى تحاول ملء أوعيتها بكتب التراث وتدعوا إلى غض النظر عن ثقافات العصر وما فيه من مشاكل وقد حظيت هذه الجماعة بتأييد الجماهير الواسع . ويتمسك بهذا السيناريو من يدعون إلى

العودة للتراث بوصفه يقدم نموذجاً بديلا يغطى جميع ميادين الحياة المعاصرة ، انطلاقا من المقولة المشهورة (لا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح بها أولها) يمثل هذا النموذج السلفيون الذين يدعون إلى استعادة النموذج العربى الإسلامى والارتكاز عليه لتشييد نموذج عربى أصيل يحاكى النموذج القديم (٢١) .

ويدفع هذا التيار نحو العزلة والتركيز على الخوصية المحلية ورفض كل ما هو وراد من الثقافة الغربية . ويرون الأخذ بمبادئ الشريعة لتنظيم الحياة المعاصرة ويمثل هذا التيار كتابات مصطفى صادق الرافعى والحركات الدينية التى ظهرت فى نهاية القرن الماضى مثل الحركة المهدية والوهابية والسنوسية .

٢ - التقليد للثقافات الاخرى :

يظهر رد الفعل هذا حين الانبهار بحضارة الطرف الآخر والإيمان بصلاحيتها وأن لا مجال للاختيار لدى ثقافتنا سوى العمل على الأخذ بالنموذج الغربى كنموذج حضارى جديد للعالم وما يتبعه من زحف النموذج الغربى بكل قيمه وأنماطه إلى نموذجنا الحضارى وما يتبع ذلك من زوال الهوية الخاصة لهذه الأمة .

أن الأساس فى هذا النموذج هو الإقبال على نموذج آخر يرى فيه حلا لمشاكله دون قدرة على البناء والتشييد الذاتى . مثال ذلك احتضان الثقافة الكنسية فى العصور الوسطى للتراث الرومانى خاصة ما يتعلق بالشطر النظامى والقانون واعتبار نفسها استمرارا لذلك النموذج .

وفى الوقت الحاضر يظهر هذا النموذج فى محاولات التقمص والتشبه بمجموعة من الأنماط السلوكية فى المأكل والملبس والعادات الغربية التى تأخذ بها مجتمعات العالم الثالث (٢٢) .

ويظهر هذا النموذج فى الفكر العربى فى كتابات كل من فرح أنطون وسلامة موسى وسعيد عقل وغيرهم .

ويشبه الفيلسوف العربى الحديث : زكى نجيب محمود - هذا النموذج فى تعامل بعض أعلام الثقافة فى العالم العربى « كمن وجد الصيد نافرا من القفص فحطم القفص وجرى مع الصيد حيث جرى » .

وترى هذه الجماعة القليلة أن ليس باسا من أن نمحو صفحتنا محوا لنملأها بثقافة العصر (الغرب) وحده كما هى معروفة من مصادرها دون تحريف أو تعديل ، وهى بذلك تتخلص من القوالب الموروثة وترفضها كما تلقيها فى اليم [٢٣] .

إن هذه الجماعة التى تبنت الاغتراب بمعنى تقليد الحضارة الغربية رغم قلتها تحاول النظر إلى الأمور بعيون أوروبية وتكره كل ما له انتماء إلى الثقافة العربية الحديثة أنها تكتب باللغة العربية وهى تقوم بعرض الثقافة الغربية ليس عن طريق ترجمتها وإنما عن طريق صفحها وعرضها بأسلوب حى وهى بالتالى تكون دمجت نفسها فى عالم الغرب كما هو وذابت فى عالم غير عالمها .

٣ - الصراع :

يظهر فى حالة التعارض الكامل بين الثقافات المتفاعلة وحين تتعلق الأمور بمقومات الثقافة الأساسية بحيث يسعى كل طرف للقضاء على ثقافة الطرف الآخر ، وحينها يكون أى نجاح لطرف خسارة مباشرة للطرف الآخر ، وتؤدى هذه العلاقة إلى شعور بالكراهية و المرارة بين الطرفين وغالباً ما تأخذ صورة العلاقة بينهما طبيعة عنيفة يحاول كل طرف استخدام القوة لفرض ثقافته وقيمه على الطرف الآخر ويحاول استنهاض الرموز القتالية فى ثقافته لحشد القوى ، ويعبر عن هذا المفهوم فى الكتابات الغربية المعاصرة ما نشره صموئيل هنتجتون عن صراع الحضارات وإمكانية وجود تحدى للحضارة الغربية من الحضارات الإسلامية والبوذية وغيرها [٢٤] ، وتجد هذه النظرة فى المقولة المشهورة « الشرق شرق والغرب غرب وهما لن يلتقيا » .

وتبنى هذا النمط من ردود الأفعال من يؤمنون بأصالة الثقافة العربية وقدرتها على المواجهة خاصة فى علاقتها مع الثقافة الصهيونية بالمقام الأول وكذلك الإيمان بعدوانية الثقافات الأخرى واستفزازها ووجوب الرد عليها .

٤ - نموذج التزاوج :

يقوم هذا النموذج على الإيمان بالعلاقة الإيجابية بين الثقافات وأن هذه العلاقة علاقة تأثير وتأثر ، ويظهر هذا النموذج فى العلاقة بين الثقافة العربية الإسلامية وكلا من الثقافة الفارسية واليونانية ، حيث أقبلت الثقافة العربية على فلاسفة اليونان ومعالم الخبرة الفارسية تنهل منها جزئيات ضمن عملية منظمة ومراجعة مستمرة لإعادة صياغة

كاملة للثقافة العربية فى ظل إطار إيديولوچى واضح ترتبط بنظام القيم الإسلامية من أجل تقديم نموذج جديد للثقافة الإسلامية مصادره متباينة لكن عناصره جديدة ومتجددة وهو ليس تكرارا للثقافات الأخرى ولكنه يستمد مصادره التاريخية من تلك الثقافات .

وهو ما حدث أيضاً بالنسبة للثقافات الغربية وعلاقتها بالثقافة اليونانية والمسيحية ومفكرى عصر التنوير واعتبرت نفسها امتدادا طبيعيا لهذه الثقافات فى ظل استخدام معاول النقد والصياغة والدمج لإنتاج ثقافة عصرية لا تعد تكرارا لتلك الثقافات وإنما نتاج للتفاعل معها .

أما فى الواقع العربى الحديث فقد تبنى هذا النموذج مجموعة من أعلام الثقافة العربية مثل محمد عبده والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وشبههم الدكتور زكى نجيب محمود بمن وجد الصيد نافرا من القفص لكنه بقى يعمل على تطويعه ومحاولة صياغته فى قوالب الثقافة العربية الأصلية مع تفاوت درجة النجاح بينهم [٢٥] ويلاحظ هنا بأن أغلبية المثقفين فى الوطن العربى نهجوا هذا النهج فى محاولة التعامل مع الثقافة العصرية والغربية والذات والاستفادة منها بعد تطويعها لخدمة الثقافة العربية .

من دراسة النماذج السابقة لإمكانية التبادل الثقافى يمكننا القول بأن النموذج الأول والثانى يخرجان من نماذج التفاعل نظرا لإيمانهم بعدم تكافؤ عملية التبادل الثقافى ، فالنموذج الأول خرج من المواجهة بالتحوصل حول الماضى ويرفض أى نوع من التبادل الثقافى خوفا على خصوصية الثقافة العربية الإسلامية ، أما النموذج الثانى فهو مستسلم للثقافة الغربية العليا ويرفض التسليم بوجود ثقافة عربية قادرة على العطاء ويرى بأن الثقافة تتدفق فى اتجاه واحد من ثقافة الغرب المتقدمة نحو المجتمعات المتخلفة ومنها المجتمعات العربية ، أما النموذج الثالث والرابع فيريان أن هناك إمكانية للتكافؤ بين الثقافتين .

فبينما يرى النموذج الثالث بأن هذا الاحتكاك يأخذ طبيعة الصراع والتحدى واستحالة التقاء الثقافتين أو إجراء أى تبادل ثقافى بينهما وأن على كل طرف أن يعمل على تقوية الذات فى مواجهة الطرف الأخر ، فإن النموذج الرابع يدعوا إلى زيادة التبادل الثقافى والتزاوج بين الثقافات وإمكانية استفادة كل الحضارات من بعضها البعض فى ظل شروط معينة .

الخاتمة

من خلال استعراض أنماط التفاعل غير المتكافئ بين الحضارات العربية والإسلامية والحضارة الغربية والصورة القاتمة التى ظهرت عبر هذا التفاعل يمكن القول بأن المستقبل مازال ينبئ بأن هناك احتمالات واسعة للتعاون والتبادل الثقافى والتى يجب أن تقوم على الحوار والاحترام المتبادل حيث تملك الحضارة العربية الإسلامية كثيرا من القيم الاجتماعية والروحانية التى تساعد فى خروج المجتمع الغربى من ورطته المادية ويمكنها الاستفادة من القيم الروحية والعدالة الاجتماعية للعلاقات الإنسانية بدلا من إدخال فكرة السوق التى اعتمدها الغرب كخيمة دينية .

كما أن العرب يملك مجموعة من القيم الإنسانية والتى يمكن إدخالها للثقافة العربية الإسلامية كفكرة حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية والتى يمكن استيعابها ضمن الثقافة الإسلامية باعتبارها قيم عالمية لا تتعارض مع خصوصية الثقافة العربية الإسلامية ولا تتعارض مع العقل وهى الشروط الأساسية للأخذ من الحضارات الأخرى .

أن النظرة المتفحصة للعلاقة بين الثقافة العربية و الغربية يجب أن تقوم على التفاهم والحوار وإلا خضعت هذه العلاقة إلى الحرب والصراع، وان مقومات هذا التفاهم الاعتراف بفضل كلا الحضارتين فى مد الفكر البشرى بعناصر يانعة من التراث الثقافى ورفض مبدأ التشويه من كلا الحضارتين بحيث لا يجوز عرض الثقافة العربية على أنها تعبير عن نموذج التخلف ، والمجتمع التقليدى العاجز عن إنتاج حضارة وثقافة وإنه نموذج للتعصب تجمعت فى مسالكه جميع مساوئ الوجود الإنسانى .

كما لا يجوز تقديم الثقافة الغربية على أنها تعبير عن التقدم والرقى والانطلاق والحق فى القيادة فهذه الثقافة لها أيضا مشاكلها ومعاناتها مع عدم إنكار دورها فى تقدم البشرية ولكن ليس لها وحدها ينسب كل مظاهر التقدم البشرى فقد ساهمت جميع الحضارات بقسط فى إنتاج ودعم الحضارات الإنسانية .

إن العالم اليوم بحاجة إلى مساهمة الجميع فى بناء الحضارة والثقافة الإنسانية التى تقوم على التزاوج والاحتكاك بين الثقافات لتحقيق التكامل بين فلسفة وروحانية الشرق وعلم وعقلانية الغرب لتحقيق عالم أفضل للجميع .

الهوامش

١ - Pye and Sidney Verba, Politieal Culture and Political Development, N. J . Princeton University Press, 1965 . p . 513

٢ - حامد ربيع ، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي ، دار الموقف القاهرة ١٩٨٢ ص ٣٥ وكذلك .

Wolf . High light on Culture, in Vol. 12 No. August, 1989, P. 361.

٣ - بيتر ورسلى ، العوامل الثلاثة ، الثقافة والتنمية العالمية ، دار الشئون الثقافيه ص ٨٧ - ٨٨ .

Boy . Multi Culturalism in A Global Village, in Future, Vol 12 . No . 4, August. 1989 367.

٥ - انظر فى ذلك :

- عبد الباسط عبد المعطى ، إشكاليات المسألة الثقافية فى زمن التسوية ، مجلة مستقبل الإسلامى عدد ١٦ خريف ١٩٩٥ ص ٢٣

Rosenbaum, Political Culture, N . Y . praeger 1975, p. 4

٦ - برهان غليون ، التنمية الثقافية العربية بين التبعية و الانغلاق مجلة الوحدة عدد أ ص ١٥ .

Op . CIT, P. 370 .

٨ - عبد الباسط عبد المعطى ، المرجع السابق ص ٣٤ .

Northrop, The Taming of the Nation , New York, Macmillan 1953 , P. 179.

Davos , Responses to change , N . Y †. Van Nostrand Co 1976 PP. 4 - 5 .

١١ - انظر لمزيد من المعلومات عن هذه المفاهيم ومقارنتها مع بعض كلا من :

- برهان غليون ، المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥
- عبد الباسط عبد المعطى ، المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٨
- محمود أمين العالم ، الغزو الثقافى والتخطيط المستقبلى للثقافة المنظمة العربية للتربية والعلوم ، الكويت ١٩٨٦ .

١٢ - انظر الإشكاليات الخاصة بفهوم التبعية و الفرق بين التبعية السياسة و الاقتصادية ، عبد الخالق عبد الله ، التبعية الثقافية ، مجلة المستقبل العربى عدد ٨٣ بتاريخ ١٦ - ٢٣ .

- ويتوسع البعض فى فهمه لمصطلح التبعية ويرى بأن التبعية ليس بالضرورة أن تكون للآخر قد تكون تبعية للماضى من خلال دعوة أنصار التراث والسلفيوت بالعودة للماضى والإنبهار الأخذ بالنصوص القديمة وعملية نقلها ، انظر فى ذلك محمود سلطان ، دوغمائيه الاصوالى و الحداثى فى العالم العربى فى جريدة الحياة عدد ١٢١٥٧ بتاريخ ١٩٩٦/٦/٨ .

١٣ - انظر بخصوص تعريف الإمبريالية كلا من :

Michael Brown. After I MPERIALISM, N . Y , Humanities press, p. V 111 1970, P. V.

Benjamin Cohen , The Question of Imperialism , New York , Basicbook Inc . 1973 .

١٤ – حامد ربيع ، المرجع السابق ص ٣٠ – ٣١ .

١٥ – انظر فى ذلك نظام بركات ، مقدمة فى الفكر السياسى ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٥ .

١٦ – حامد ربيع ، المرجع السابق ص ٢٧ .

17 - Arifin Bye, Op . cit, p . 369 .

١٨ – انظر فى ذلك :

– عبد الباسط عبد المعطى ، المرجع السابق

– عواطف عبد الرحمن ، قضايا التبعية الإعلامية و الثقافية فى العالم الثالث عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٤

– على الاشرافى ، الرأسمالية ووسائل السيطرة الاستعمارية على العالم مجلة التوحيد ، عدد ٨٠ شباط ١٩٩٦ ص ١٠٣ – ١٠٥

– باتر ان بادى ، الدولة المستوردة ، تغريب النظام السياسى ، دار العالم الثالث باريس ١٩٩٥ ، ورد عرض الكتاب فى مجلة السياسة الدولية عدد ١٢٤ ، إبريل ١٩٩٦ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

١٩ – حامد ربيع ، المرجع السابق ص ٢٣ – ٢٤ .

٢٠ – زكى نجيب محمود ، ثقافتنا فى مواجهة العصر ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٥ – ٦١.

٢١ – محمد عابد الجابرى ، إشكاليات الفكر العربى المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، ١٩٨٩ ص ١٦ .

22 - G . A Devos, Op, cit, p. 5 .

٢٣ – زكى نجيب محمود ، المرجع السابق ص ٢٦ .

٢٤ – انظر نماذج لهذا الموقف :

– فى الجانب الغربى :

- Samuel Humtington, The Clash of Civilization, Foreign Affairs, Summer, 1993.

وكذلك فرانس فوكوياما ، نهاية التاريخ – ترجمة حسين الشيخ ، دار العلوم العربية بيروت ١٩٩٢ .

* فى الجانب العربى انظر :

حامد ربيع ، المرجع السابق ص ٢٦ – ٣٣ .

وكذلك هشام شرابى ، المثقفون العرب والغرب ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٨ .

* انظر فى ذلك :

– زكى نجيب محمود ، المرجع السابق ص ١٥ .

– حامد ربيع ، المرجع السابق ص ٢٤ .